

الكتاب الرابع

تهكم المعري وفن سخريته

الفصل الأول

ملاذع رسالة الغفران

لا أرتاب في أن المعري حشر في رسالة الغفران مغامر لدعاه ومطاوى تهكمه بكثير مما تواضع عليه الناس في وصف يوم الدين ، والعرض على الحساب ، والميزان ، وتصوير الجنة في هناءة أهلها ، وراحتهم في النعيم المقيم ومنالهم ما يشتهون ونزعتهم في جنائن وسكناتهم قصوراً ، وتبسطهم في فنون المطاعم ، ومتعمهم بالخور العين .

وقد سار على مهل في هذه الأوصاف واحداً واحداً فخلع عليه حلة من خيالاته ومغالاة من بدائع تصوراته وساعفه على ذلك التصور والخيال مامر في القرآن الكريم من وصف لجنة عرضها السماوات والأرض أعدت للمتقين . وإنى لأجل القرآن عن المغالاة والتهويل وإنما تلك أمور في علم الله ، ذكرها في كتابه الحكيم واليه من أن تتشوف نفسه إلى خلود عالمها وبقاء نعمها بعد أن أحس الشقاء في هذه الحياة الدنيا . ولولا ما ركب الخالق في طباع الإنسان من الميول والمشاعر ، والنوازع والدخائل . وفيها الأمل واليأس ؛ لما كانت نشأت قضية الآخرة في سائر الأديان السماوية . ولقد نشأ التقابل بين خلقه الإنسان والطبيعة منذ كانا . فلولا النور لما خلقت عيوننا ، ولولا الأصوات لما خلقت حناجرنا . فالجنة في نوازع النفوس ، وتركيب الخيال في الأذهان .

غير أن أبا العلاء نسج على تلك الصور المأمولة في العقائد الإسلامية
إبراداً من الوهم الخارق خرج به عن نطاق الجد إلى الهزل .
ولست أشك في أنه أحب أن يداعب على بن منصور كما يداعب الداهية
المحنك شيخاً مهووساً ليجعله هُزأةً للمتهكمين وسلوة الساخرين ،

فأبو العلاء أمات ابن القارح ثم بعثه وخرج به يوم الدين فطوفه بالجنة
والنار ، وأراه مُتَعِ النعيم وأهوال الجحيم . ولكنّه لم يكن في ذلك معنياً
بسوى الأدب واللغة والنحو ، وجرائم الاعتقاد ، وعذابات الملعدين ، وظلت
الأخلاق عنده قليلة الذكر . فأين الريبة والخبائث ، والفجور والمفاحش ،
والجور والمظالم ، والتكيل بأهليهم في الآخرة . والاستفاضة في تصوير
ذلك وتخيّله .

كل هذا مر به المعري مرور الإلمام بغير مُقام .
وأول صورة على تهكمه في الرسالة وسخريته ؛ ما أجراه من الكلام في
مشاجرة النابغة الجعدي مع أعشى قيس . فكان يقول له الجعدي إن دخوله
الجنة من المنكرات وكان من حقه أن يكون في الدرك الأسفل من النار ، وقد
صلى بالنار من هو خير منه ، حتى يقول له :

(ولو جاز الغلط على رب العزة لقلت إنه غلط بك) — كما تقدم — .
وفي هذا غمز ظاهر ، تخريجه بأن الكثير من أهل الجنة قد دخلوها بغير حق
أما التهم الخفي والسخرية المسكتومة فكانت في الإوز اللواتي ينتفضن
عن قيان كأنهن الدراري يرقلن في وشى الجنة وبأيديهن المعازف . فيقول
ابن القارح للنابغة الجعدي : (يا أبا ليلى اختر لنفسك واحدة منهن فلتذهب
معك إلى منزلك تلاحنك أرق اللحان وتسمعك ضروب الألحان) .

فيقول لبيد : (إن أخذ أبو ليلى قينةً وأخذ غيره مثلاً ليس ينتشر خبرها
في الجنة فلا يؤمن أن يسمى فاعلو ذلك أزواج الإوز) .
فيكشف أبو ليلى وصحبه عن الزواج بتلك الإوزات .

وتهكم آخر فيه لذع ؛ ذلك الحوار الذي جرى بين ابن القارح وبين (رضوان) بواب الجنة ، وصدوف رضوان عنه ، غير عانيء بشعره ، جاهلاً ماهي الأشعار وأنه لم يسمع بهذه الكلمة قط . فينكر عليه رضوان الدخول إلا بإذن الله . وحين أعياء الأمر انصرف إلى حاجب آخر من حُجُباب الجنة فمنعه الدخول إلا بشفاعة نبيه . فتعلق ابن منصور بركاب إبراهيم ابن الرسول . فوجد نفسه لا يستمسك على الصراط . فقالت الزهراء أخت إبراهيم الجارية لها أجيزيه . فجعلت تمارسه وهو يتساقط من يمين وشمال . فقال لها ياهذه إن أردت سلامتي فأحمليني زقفونة . فقالت له وما زقفونة . فقال أن يطرح الإنسان يديه على كتفي الآخر ويمسك بيديه ويحمله ويطنه على ظهره . وضرب لها مثلاً بديت من الشعر فيه ذكر الزقفونة قاله الجحججول من أهل كفر طاب . فقالت الجارية لابن منصور ما سمعت بزقفونة والجحججول ولا كفر طاب إلا الساعة . فلما عبر الصراط بعد أن حملته هذه الجارية وجازت به كالبرق وقف بباب الجنة فسأله رضوان : هل معك جواز ؟ فقال لا . فقال لاسبيل إلى الدخول إلا به ولسكن إبراهيم رجع إليه فجذبه جذبة حصل بها في الجنة .

وكل هذا لذع ظاهر ، وتهكم لاربية فيه . وهل بعد حملة الزقفونة سخرية أبعد ، وتهكم أجرح . وتخرج آخر لهذه الصورة في النقد الساخر أن قضية الشفاعة والزلفى التي كانت معروفة في الدنيا لاتزال هي هي في الآخرة ؛ وبين يدى الحشر وفي دخول الجنة .

وقد تهكم أبو العلاء بعدل الله وغفرانه تهكماً أخفى وأشد استساراً وذلك في عرض إبليس راسفاً في الأغلال راجفاً مضطرباً في السلاسل ؛ ومقامع الحديد تهوى عليه بأيدي الزبانية ، وهو غير مشغول غن الشعر بما هو فيه من العذاب ، فيقول لابن القارح إنه راض عن بشار لأنه مدحه وفضله على آدم بقوله :
إبليس أفضل من أيكم آدم فتبينوا يامعشر الأشرار

وإذا بشار موجود ثمة ، وقد أغمض عينه لثأتهوله مشاهدة عذاب
الزبانية له والزبانية يفتحون عينيه بكلايب من نار فيأسف ابن القارح على
بشار لما نزل به ويقول له : (كنت في الدار العاجلة أذكر بعض قولك
فأترحم عليك ظناً أن التوبة ستحققك بمثل قولك) :

إرجع إلى سكن تعيش به ذهب الزمان وأنت منفرد
وقولك :

الحر يلحى والعصا للعبد وليس للخلف غير الرد
ويقصد أبو العلاء أن هذه المعاني الغرر ، والحكمة الباقية شفاعته لمثل بشار
من هذا الضر الذي نزل به في الآخرة ، وكأنه يقول ولستكن الله يأبى أن
يفقر له .

كذلك أبطن المعري معاني لاذعة في نسيج من الكلم ، ساخر حيناً وسخرية
ظاهرة ، وآونة خفي السخر دقيق التهكم .

الفصل الثاني

التهكم العلائقي

السخرية والتهكم فن لا يؤتاها إلا لودعي بصير بمداخل الكلام ومسارب الفكر . وقد كان أبو عثمان الجاحظ في أدبائه النثر شيخ هذه الطريقة اللاذعة ، فظهرت في أدبه أقوال التهكم . بعضها خفي وبعض ظاهر وكان هذا الفن ملاحظة بيانه وحلاوة معانيه . طبعته أمه عليه وخاله . فلقد جاع يوماً فقدمت إليه أمه طبقاً عليه السكتب وقالت له : كل هذا . وقصدت تقرّيعه بهذا التهكم ، إذ كان أهمل شؤون البيت واكتفى بالتحجير والمدارسة . وخاله « يموت بن المزرع » كان يقول الشعر وكان معروفاً بالسخرية والتهكم .

وفي شعراء الإسلام كان جرير يطلع في أبيات هجوه أزهير سخرية وتهكم لسكنها قليله نادرة . فلما قال مدافعاً عن راويته مربع :

زعم الفرزدق أن سيقتل مربعاً أبشر بطول سلامة يا مربع

خرج على مألوف الهجاء الذي عرفته العرب في جاهليتها وإسلامها وكان إقذاع كلام وشتائم وسباً . على أن حنكة زهير بن أبي سُلَيْب في دخائل الكلام لم تحرمه هذا الفن ففي هجوه لآل حصن تهكم ولذع ظاهر يسن غير الهجاء .

ولما جاء ابن الرومي أتقن هذا الفن . ورب كلمة منه ذات سخرية لاسعة تنفذ فيما لا تنفذ الإبرة ، ولا يقوم مقامها القصيدة الطويلة الأبيات في الهجاء والتجريح .

وكان المتنبي عارفاً بمكامن التهكم فقد سخر ولذع رجلين قتلا جرذاً وأبرزاه يعجبان الناس من كبره وكل منهما يدعي أنه تولى قتله :

كلا الرجلين اتّلى قتله فأيكما غل حر السلب
وأيكما كان من خلفه فإن به عضه في الذنب
ولم يكن أدب العرب محروماً من فن التهمك . لسكنه كان نزوات على أسلات
الأقلام بين الصفحة والصفحة ، أو أحياناً تجيء بين القصيدة والقصيدة ، أو جملاً
يندبها الكلام في مطاوى الخطب أو مراحل الحديث . ولم يكن في أدبنا العربي
أديب واحد عرف بين الجميع ، وتميز من رفاقه بفن التهمك ونزعة السخرية كما
تميز (فولتير) من أدباء فرنسة ، وكما عرف (أنا طول فرانس) بين كتابها
فلقد كان فولتير لذاعاً مشهوراً بأسلوبه التهكمي ولا يكاد يخفى له أثر من لمزات
السخرية حتى عرف في الأدب الغربي بالكاتب الساخر .

أما أنا طول فرانس فكفى بسخريته دليلاً قصة (تاييس) راقصة
الإسكندرية . فإن في أعمال القس (بافوس) وأقواله مواضع لتهمك أنا طول
ومواطىء لقلبه الساخر المبين .

وإني لأجد بين أبي العلاء وأنا طول توافقاً وتشابهاً في (النقد الديني) .
فأنا طول نقد مشاهد من المسيحية بواسطة أعمال أجراءها ؛ وأقوال قالها
(بافوس) . وأبو العلاء صنع أبعد من ذلك وكان سباقاً إلى نقد ديني أروع
فنقد مشاهد إسلامية من الجنة والنار بواسطة أقوال قالها أدباء وعلماء حاورهم
فيها أو جادلهم علي بن منصور الشيخ الأديب الحلبي .

ولم يقتصر أبو العلاء في بث تهكمه خلال رسالة الغفران ، لسكنها بداله
تهكم في سياق اللزوميات وخلال بعض رسائله . ولم يكن في أكثر سخريته
وتهكمه عادياً ولا ظالماً ، وإنما كان (حر الفكر) كثيره من رجال الفكر
الذين خلدوا في جبين الدهر . قالوا حقاً ولم يتهيبوا عن المؤاخذين . ولقد
ضحى بعمره الطويل في سبيل فكره النبيل . فاتخذ الشعر والنثر أداة لنقد
نقائص المجتمع ومثالبه ، وكان كرسول إصلاح للأمة العربية . فوق ما كتب
له من رقة الحال ، وقلق البال ، فإنه خرج من الدنيا وقد أدى رسالته .

المصادر من كتب أبي العلاء

- لزوم ما لا يلزم الطبعة التجارية الثانية بمصر
اللزومات طبعة المحروسة بمصر لعزیز زند الجزء الأول سنة ١٨٩٢ م
والجزء الثاني سنة ١٨٩٥
- سقط الزند وعليه شرح التنوير طبعة المعارف بمصر سنة ١٣٤٢ هـ
السفر الثاني من آثار أبي العلاء في شروح سقط الزند . للجنة إحياء آثاره
ط دار السكتب بمصر سنة ١٩٤٦
- ضوء السقط طبعة بيروت سنة ١٨٨٤ م
رسالة الملائكة طبع لننغراد ١٩٣٢ م لكراتشكوفسكى
رسائله طبع أكسفورد ١٨٩٨ لمرجليوث، مقابلة على الطبعة البيروتية
مع مقدمة له بالانكليزية عن المعرى .
- رسائله طبع بيروت سنة ١٨٩٤ م لشاهين عطية اللبناني والشيخ عباس
الأزهري و خليل الخوري
- رسائله طبع السعادة بمصر
رسائله إلى داعي الدعاة الفاطمي . الطبعة السلفية بمصر ١٣٤٩
- الرسالة الفلاحية طبع كراتشكوفسكى الروسى سنة ١٩١٣ م
رسالة الغفران لليازجى طبعة هندية بمصر ١٩٠٣ م
الفصول والغايات طبعة حجازى بمصر سنة ١٩٣٨ . وقوف الأستاذ الزنائى

المصادر القديمة

- إرشاد الأريب (معجم الأدباء) لياقوت الرومى الحموى طبعة البابى بمصر الجزء
الثالث ص ١٠٧ وما بعدها
- نكت الهميان للصفدى ص ١٠١ وما بعدها طبعة مصر ١٣٢٩ هـ

وفيات الأعيان الجزء الأول طبع باريس سنة ١٨٣٨ بوقوف البارون

(أوسلان) ص ٤٧ — ٤٩

تاريخ بغداد للخطيب البغدادى طبعة الخانجي بمصر ١٩١٣ الرابع ص ٢٤٠

المشتبه في أسماء الرجال لشمس الدين الذهبي طبع لندن سنة ١٨٦٣ ص ٤٩٢

مرآة الجنان للإمام البيهقي الطبعة الأولى ، حيدر آباد سنة ١٣٣٨ الجزء

الثالث ص ٦٦ — ٦٩

معاهد التنصيص على شواهد التنخيص للعباسي طبع دار الطباعة بمصر ١٢٧٤ هـ

ص ٦٦ — ٧٠

رسالة ابن القارح إلى أبي العلاء في رسائل (البلغاء للاستاذ محمد كرد علي طبعة

مصر ١٣٣١ هـ) والطبعة الثانية — للجنة التأليف والترجمة

والنشر سنة ١٩٤٦ بمصر

شذرات الذهب لابن العماد الحلبي طبعة القدسي بمصر سنة ١٣٥٠ هـ الجزء الثالث

فيها ترجمة لأبي العلاء ج ١ ص ٢٨٠

مخطوط (إنباه الرواة على أنباه النحاة) لأبي الحسن القفطي . نسخة

فوتوغرافية بدار السكتب المصرية « رقم ٢٥٧٩ تاريخ ، —

ص ٤١

كان الفراغ من وضعه قبل السفير الجليل الذي أخرجته وزارة المعارف

المصرية باشراف الدكتور طه حسين بك وسمته (تعريف القدماء بأبي العلاء)

طبعة دار السكتب المصرية سنة ١٣٦٣ — ١٩٤٤ في القاهرة بمناسبة اشتراك

الحكومة المصرية بالاحتفال بألف سنة على ميلاد أبي العلاء المعري في

مهرجان الجمع العلمي بدمشق سنة ١٩٤٤ ، ١٣٦٣ في ٢٥ ديسمبر وسائر البلاد

السورية . فثبت النظر فيه مفيد آمن هذا السفر الذي جمع المصادر في سجل واحد .

مصادر بالفرنسية عن أبي العلاء

Clement Huart : Littérature able.

Georges Salmon : Les Poètes aveugles (abul - alâ)

ومعه مقارنة بين أبي العلاء وعمر الخيام حول الأفكار المتشابهة عندهما

Etude sur les Personnages mentionnes dans (l'idjaza du cheik

ABD' el quadir Fasy

طبع باريس سنة ١٩٠٧

تأليف محمد بن شنب الأستاذ في جامعة الجزائر ص (441) فقرة (244)

Le message du Pardon d'abul ala el Maarri, Par maïssa

طبع باريس المكتبة الشرقية لجوتنير ١٩٣٢

Préface de W. marçais
رسالة بأسماء كتب أبي العلاء طبع باليرمو ، سنة ١٩١٠ margoliouth

مصادر في علم النفس التحليلي

خاصة بفصل (المعرى في ميزان فرويد)

trois essais sur la théorie de la sexualité par Freud.

الطبعة الثانية والثلاثون لغاليمار بباريس ١٩٣٢

Introduction a la Psychanalyse Par Freud.

طبعة بايو بباريس ١٩٢٦ .

معلنة القرن العشرين بالفرنسية الجزء الثالث ص ٢٣٨

كتاب التعلم والتعليم تأليف ١٩٤١ Learning and Teaching

هوغيس طبعة لانجيمان بلندن ص (32,33) .